تفسير سورة التحريم

بقلم
للدكتور: عبد الحليم محمود

« وأسرار التنزيل ، ورموزه فى كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويند عن تبصره » الكشاف .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا(١) أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

لم نذكر فى المقالات السابقة شيئا من أسباب النزول وسرنا فى تفسير

---

(١) من طريف ما يروى ، فيما يتعلق بهذا الفعل ، ما حكاه صاحب مروج الذهب : من أن أبا خليفة الفضل بن الحباب الجمحى المتوفى عام ٣٠٥ هـ ، وكان أحد قضاة البصرة جلس يوما هو وأصحابه تحت النخل على ضفة نهر من أنهار البصرة ، فسأله أحد أصحابه عن حكم الواو فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » .

ثم سأله كيف يقال . هذا الفعل بالنسبة للواحد ، وللاثنين وللجماعة من الرجال والنساء ؟ وسأله أن يقول ذلك فى سرعة مريعة ، فقال أبو خليفة : ق ، قيا ، قوا ، قى ، قيا ، قين ، وكان بجوارهم بعض العمال ، فلما سمعوا ذلك استفظعن ، وقالوا : « يازنا دقة ! ! أنتم تقرءون القرآن بحروف الدجاج ، وثاروا عليهم ، وأخذو يصفعونهم !

وما تخلص أبو خليفة وأصحابه من أيديهم إلا بعد كد طويل !

الآيات ، وكأننا لا نعلم شيئا عن هذه الأسباب ، ومع ذلك فقد استقام لنا التفسير كل الإستقامة ، ولقد استقام دون ما تعسف أو تكلف أو التواء .

لو كنا تحدثنا عن أسباب النزول لاضطررنا إلى الموازنة بين الروايات المختلفة ، وربما انتهينا إلى ترجيح ما ليس براجح . وكنا — على أي وضع كان — قد شغلنا أنفسنا وشغلنا القراء بما لا يحتاج تفسير النص إليه .

ولست أريد أن أقول بالغاء أسباب النزول حينما نفسر القرآن :

(١) ولكن مما لاشك فيه أننا فى الأغلب من الأحوال لسنا فى حاجة ضرورية إليها ، من أجل فهم النص .

(٢) ثم إنه فى بعض الأحيان تكون أسباب النزول سببا فى انحراف الفهم والبعد عن المعنى الصحيح ، كما فى قصة السيدة زينب بنت جحش زوج الرسول ، ﷺ .

(٣) ثم أن أسباب النزول هذه التى تمتلىء بها كتب التفسير لم يصح منها إلا النزر اليسير ، أما الأغلبية الساحقة منها فانها ضعيفة ، أو موضوعة كما فى مسألة الغرانيق .

(٤) على أن المحققين من سلفنا الصالح ، رضى الله عنهم ، حينما رأوا كل ذلك حاولوا أن يعالجوا الإسراف والإنحراف فيه بقاعدتهم المشهورة ، وهى : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » .

وهدف سلفنا الصالح من هذه القاعدة إلا تربط الآية بحادثة جزئية وتقتصر عليها ، بل القاعدة تكاد توحى بأن أسباب النزول لا ضرورة إليها فى التفسير إذ نحن فى التفسير بصدد قضايا عامة لا يخصصها السبب الجزئى .

ولنأخذ الآن فى شرح بعض النواحى التى تتعلق بالآية الكريمة التى صدرنا بها هذا المقال .

لقد أفتتح الله هذه السورة بالأسلوب المباشر ، فخاطب الرسول صلوات الله عليه ، ثم اتجه إلى أمهات المؤمنين : زاجرا ومؤنبا ومتوعدا . ثم عدل فى الآية التى نحن بصددها عن الأسلوب المباشر إلى الأسلوب العام الذى يشمل المخاطبات ويشمل غيرهن وهذا الأسلوب العام فى الخطاب ليس معناه ترك الموضوع إلى غيره ، فلا زلنا بصدد التقريع العنيف على فعل كل مالا يرضى الله : يا أيها الذين آمنوا : سواء كنتم من الصحابة ، أو من أمهات المؤمنين ، أو من عامة الناس ، حصنوا أنفسكم وأهليكم وأنقذوهم

من هول فظيع : هو نار لاتشتعل بحطب أو خشب ، وإنما وقودها الناس ووقودها الحجارة ، ويزيد فى هولها أن القائم عليها والمتصرف فى تعذيب أهلها ، ملائكة غلاظ شداد فيهم جفوة وفيهم خشونة ، لاتعرف قلوبهم رأفة أو رحمة بالنسبة للمجرمين أعداء الله .

«لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون» . يقول صاحب الكشاف : فان قلت : أليست الجملتان فى معنى واحد ؟ قلت : لا ، فان معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ، ويلتزمونها ، ولا يأبونها ، ولا ينكرونها ، ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، ولا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه» .

والذى نريد أن ننبه عليه فى هذه الآية .

هو اتساع دائرة المسؤلية حتى تشمل الأهل ، والواقع أن فى القرآن آيات كثيرة توسع دائرة المسؤلية حتى تشمل المجتمع كله .

وقد فهم قوم من قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» أن الإنسان عليه نفسه فحسب ، وهذا خطأ فى التفسير ، فالإنسان لايتخلص من المسئولية ، بالنسبة إلى نفسه إلا بعد أن يؤدى كل مايجب عليه نحو الجماعة ، فالذى لايأمر بالمعروف ، والذى لاينهى عن المنكر ، حينما يراه لم يتخلص من المسئولية ، بالنسبة إلى نفسه ، إذ من الواجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فاذا لم يؤدهما فقد قصر بالنسبة إلى نفسه ، إذ لم يؤد واجبا عليه ، ومثله فى هذا مثل من قصر فى تأدية صلاة واجبة والواقع أننا إذا أنعمنا النظر فى المسئولية الشخصية نجدها متضمنة لمسئولية الشخص بالنسبة للمجتمع .

فاذا ما أدى الإنسان واجبه : فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وبذل ما يستطيع فى إصلاح أمر الجماعة فلا عليه بعد ذلك أن ينحرف المنحرفون ، أو يضل الذين حادوا عن الحق .

هذا هو معنى الآية الكريمة ، وليس لها معنى آخر ، وعلى هذا المعنى فسرها سيدنا أبو بكر ، فقال ، رضوان الله عليه :

«يا أيها الناس : إنكم تقرءون هذه الاية ، ولا تفهمون معناها ، وقرأ : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم

لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ثم قال ولكن ذلك بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن البديهى أن المسئولية الشخصية لا تنفى ولا تتنافى مع المسئولية بالنسبة للأهل أو بالنسبة للمجتمع .

وإذا كانت المسئولية بالنسبة للمجتمع فى عمومه تقع على عاتق كل شخص فيه فانه من باب أولى تكون مسئولية كل شخص بالنسبة إلى أهله .

ولقد شاع فى أوساطنا الحاضرة فكرة ضالة منشؤها الكسل والتراخى فى تحمل الأعباء وهى أن الزوجة مسئولة من زوجها فحسب فعليه وحده يقع عبء إصلاحها واستقامها ولكن هذه الفكرة تتنافى مع الروح العامة القرآنية .

إنه من الحق أن الزوجة مسئولة من زوجها ولكن من الحق أيضا أن مسئولية فسادها تقع على والدها وأخيها وأمها وكل أقربائها وكذلك الأمر فيما يتعلق بفساد الشاب أو الشابة فالجرم كما يقع على الأب يقع على الأم والإخوة والأعمام والأخوال .

إن الأسرة كلها متضامنة متكافلة مسئول كل شخص فيها عن الآخرين ومن لم يؤد واجبه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالنسبة إلى أى فرد من أفراد أسرته فهو مقصر تقصيرا دينيا يحاسبه الله عليه . والصلاح كما يتمثل فى الصلاة والصوم والحج يتمثل أيضا فى إصلاح الاقارب وكما أنه كلما قصر الإنسان فى أداء الشعائر ابتعد عن الله فانه كلما قصر فى أداء واجبه الاجتماعى هذا كلما ابتعد عن الله أيضا .

أسرة متضامنة متعاونة على رضاء الله ذلك هو ما يريده القرآن . أما الحديث عن المسئولية الاجتماعية فى شىء من الاستفاضه فله موضع آخر إن شاء الله وبالله التوفيق .

التسليم لله

فى أمور تكون أو لا تكون ... لم تنم أعين ونامت عيون

إن الذى كفاك ما كان بالأمـ ... ـس سيكفيك فى غد ما يكون

السيدة نفيسة